من مسائل العقيدة في حاشية الإمام الطيبي على تفسير الكشاف للزمخشري

" رؤية الله -عز وجل-، خلق الأفعال، تفاوت درجات الأنبياء وأحوالهم - أنموذجًا "

إعداد
حازم شعبان المرسى الدقرة

أ. د محمد عطا أحمد يوسف
أستاذ الدراسات الإسلامية المتفرغ كلية الآداب - جامعة طنطا

د. إيمان عليوة المنجودي
مدرس الدراسات الإسلامية كلية الآداب - جامعة طنطا

المستخلص:
الدين الإسلامي دين عقيدة، ودين شريعة، ودين أخلاق، وتلك العناصر ينبني عليها الدين الإسلامي الحنيف، وبعلمها والاتصاف بها يحصل الإنسان على السعادة في الدنيا والآخرة. ومن أسس العقيدة الإسلامية وأركانها: الإيمان بالله - عز وجل - والإيمان بالرسل، مبشرين ومنذرين، والتصديق بدعوتهم.
وممن وفقهم الله تعالى للرد على بعض المسائل الخلافية - خاصة في مجال العقيدة - الإمام/ شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي - بكسر الطاء المشددة والباء الموحدة بعد التحتانية - المتوفى سنة (٧٤٣هـ)(١). وذلك في حاشيته [فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب] وهي من أجل الحواشي على تفسير الكشاف للإمام الزمخشري (ت٥٣٨هـ). مملوءة بالنكت والفوائد مشحونة بالردود واللطائف، لما فيها من العقيدة الصحيحة لمعتقد أهل السنة والجماعة، والرد على ما يخالفها رداً علمياً أصيلاً.
وقد ظهر منهج الإمام الطيبي الوسطي، في بحث بعض المسائل التي تتعلق بالعقيدة وتحقيقها، **ومنها**: إسناد الختم على القلوب إلى الله تعالى، وإسناده إليه يدلُّ على المنع من قبول الحق وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علوًّا كبيرًا. ورأي أهل العقيدة في مسألة خلق الأفعال. **ومنها:** تفصيل القول في حكم رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة ومشاهدته. **ومنها:** تفاوت درجات الأنبياء في التفضيل بينهم، وأحوالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة، وقد استشهد الطيبي بأقوال العلماء المتخصصين في تلك العلوم، وكذا أقوال المفسرين، في الرد على آراء بعض الفرق الإسلامية ومعتقداتهم ومناقشتها. موضحًا في حاشيته على الكشاف صحة تلك الردود من عدمها، وما أخذه على الإمام الزمخشري في تفسيره، أو انتصاره له، وذلك من خلال طرحه لتلك المسائل العقائدية الثلاثة بالشرح والتفنيد في حاشيته على كشاف الزمخشري، والوقوف على الرأي الصحيح فيها.

الكلمات الافتتاحية: العقيدة، حاشية الطيبي، خلق الأفعال، رؤية الله، تفاوت درجات الأنبياء.

(١) ينظر: الدرر الكامنة، ١٨٥/٢، و كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٣٤١/١، و شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢٣٩/٨، و بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ٥٢٢/١.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله الهادي الأمين، المبعوث رأفة ورحمة للعالمين ... أما بعد:

فقد تكفل القرآن الكريم من خلال آياته عامة، وعلم التوحيد خاصة؛ بدراسة وشرح العقيدة الإسلامية وأصولها، فالقرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول، جاء ليكون هداية للبشرية كلها، وهو الكتاب الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والله -عز وجل- أرسل رسوله (ﷺ) بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به.

ولا ريب أنه يجب على كل مسلم أن يؤمن بما جاء به الرسول (ﷺ) وما جاء به القرآن الكريم، إيمانًا عامًا مجملا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول (ﷺ) على التفصيل فرض - على الكفاية - فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبُّر القرآن الكريم وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر، والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

لذلك عكف كثير من علماء الأمةِ قديماً وحديثاً على البحث في مسائل العقيدة الإسلامية، الواردة في آيات القرآن الكريم، ومعرفة دقائقها وأخبارها، على اختلاف المذاهب، ومن هؤلاء العلماء الإمام/ أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الملقّب بـــ [جار الله]، والمشهور بالزمخشري، نسبة إلى زَمَخْشَر إحدى قرى خُوارِزم في بلاد فارس. المولود يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٤م) المتوفى ليلة عرفة سنة (٥٨٣هـ = ١١٤٣م)(١)، صاحب تفسير [الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل] وبصرف النظر عما في هذا التفسير من الميل نحو مذهب المعتزلة، إلا أنه تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه، لما فيه من وجوه الإعجاز في آيات القرآن؛ ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، ولقد اعترف له العلماء بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ناحيته الاعتزالية.

وممن وفقهم الله تعالى لشرح تفسير الكشاف وتوضيحه، كما رد على بعض المسائل الخلافية - خاصة في مجال العقيدة - التي تَعَدَّ فيها الزمخشري على أهل السنة؛ الإمام/ شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (ت٧٤٣هـ) صاحب حاشية [فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب] وهي من أجل الحواشي على تفسير الكشاف مملوءة بالنكت والفوائد مشحونة بالردود واللطائف، وقد نالت إعجاب العلماء، وتفضيل الفضلاء، لما فيها من العقيدة الصحيحة لمعتقد أهل السنة والجماعة، والرد على ما يخالفها رداً علمياً أصيلاً.

وظهر ذلك أكثر عند بحثه لبعض المسائل الخلافية التي تتعلق بالعقيدة وتحقيقها بالشرح، **والتي منها:** إسناد الختم على القلوب إلى الله تعالى، فإسنادهُ إليه تعالى يدلُّ على المنع من قبول الحق وهو قبيح، والله - عز وجل - يتعالى عن القبيح علوًّا كبيرًا، وفيه رأي أهل السنة في مسألة خلق أفعال العباد، وهل هي مخلوقة لله -تعالى- باختيار العبد أم أنه مضطر.

ومنها: حكم رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة، والتوفيق بين الآيات التي وردت في القرآن الكريم والثابت فيها رؤية الله - تعالى -؛ وبين الآيات التي تنفي الرؤية.

ومنها: تفاوت درجات الأنبياء وأحوالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة، وكيفية التوفيق بين الآيات والأحاديث التي وردت في تفضيل الأنبياء.

فتلك المسائل الثلاثة تُعد من المسائل العقدية الهامة التي كانت محل خلاف بين المذاهب والفرق الكلامية، واختلفت بشأنها الأنظار، والصحيح منها ما ذهب إليه أهل السنة.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء، ١٥١/٢٠، و وفيات الأعيان، ١٦٩/٥.

المطلب الأول: التعريف بالإمام الطِّيبي، وحاشيته فتوح الغيب، وطريقته في تأليفها (*):

نسبه ومولده: هو الإمام الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطِّيبِي - بكسر الطاء المشددة والباء الموحدة بعد التحتانية - من أهل توريز أو تُبْرِيزْ، من عراق العجم، وهي مدينة في الطرف الشمالي الغربي في إقليم خُوزستان من إيران، من علماء الحديث والتفسير والبيان، ولد في أحد عقود النصف الثاني من القرن السابع الهجري(١).

نشأته وطلبه للعلم: نشأ الطيبي في توريز ببلدة الطِّيبِ في إقليم خُوزستان الإيراني، في أحد عقود النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وقد ازدهرت العلوم والمعارف بفروعها المختلفة في ذلك الوقت، كما كان بها مدارس حسنة، وجمال لطبيعة البلاد التي ينتمي إليها الطِّيبي، وازدهارها علمياً وثقافياً واقتصادياً وتجارياً. كل تلك العوامل أثرت في حياة الطيبي وشخصيته، والتي منها أيضاً صلاحُ البيت الذي نشأ فيه(٢).

مشايخه الذين أخذ عنهم العلم: لم تذكر لنا كتب التراجم شيء عن أساتذة الإمام الطيبي وشيوخه، ولم تصرح بأسماء من تلقى عليهم العلم وأخذ منهم (٣).

بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم: على الرغم من قلة الوقوف على شيوخ للإمام الطيبي، إلا أنه تمكن من ترجم له، بالوقوف على تلاميذ كثيرون ممن تتلمذوا على يديه، وذلك لأنه كان ملازماً لأشغال الطلبة وتعليمهم مقبلاً على نشر العلم، كما أمر بعض تلامذته باختصار كتابه (التبيان في البيان)، وعقد مجلساً عظيماً لقراءة كتاب البخاري، فكان ذلك سببًا في كثرة الطلبة الذين نهلوا من علمه(٤).

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه: تدل آثار الإمام الطيبي ومصنفاته، وما خلفه من كتب وآراء وشروح على أن مكانته العلمية وثقافته لم تكن محصورة في فن بعينه، أو مقصورة على لون من ألوان المعرفة، ولكنها تعدت هذا النطاق الضيق، وتجاوزت ذلك القدر المحدود، لتشمل عدة فروع من العلوم والمعارف والفنون مثل:(التفسير، والحديث، والعقيدة، واللغة، والنحو، والبلاغة والقراءات، كما شملت أيضاً علم الرياضيات). أضف إلى ذلك ما عُرف عنه من صحّة العقيدة، وشدة الرد على المبتدعة، وكثرة الحب لله تعالى وللرسول (ﷺ)، وعفة اللسان، وطهارة الكلمة، فهذا كله يوضح لنا شخصية الإمام الطيبي ومكانته العلمية، كما كان آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنّة، مما ينبئُ عن ثقافته الواسعة وعلمه بفروع المعرفة (٥).

عقيدته: كان الإمام الطيبي معتقداً بعقيدة أهل السنة والجماعة، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهراً فضائحهم، شديد الحب لله ورسوله (ﷺ)، شرح الكشاف شرحاً كبيراً، وفي شرحه له مواقف كثيرة تؤيد ما ذكره أهل العلم عن عقيدته، ودفاعه عن أهل السنة والجماعة، ويأتي حُسن معتقد الطيبي من كونه على مذهب أهل السنة والجماعة، رده على الزمخشري عند شرحه للكشاف، وأجاب عما يخالف أهل السنة أحسن جواب (٦).

وفاته: توفي يوم الثلاثاء، ١٣شعبان، سنة ٧٤٣هـ = ١٣٤٢م - عليه رحمة الله -(٧).

(*) سأقدم ترجمة مختصرة، أرجع فيها إلى بعض المصادر والمراجع، وأحيل إلى غيرها للزيادة.

(١) ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لعبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، ٥٢٢/١.

(٢) ينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، حاشية الطيبي على الكشاف، ٦٦٤/١٦.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي٧٦/١٠.

(٤) ذكرهم الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة، ١٥٦/١.

(٥) ينظر: طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، ١٥٦/٢.

(٦) ينظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، ٢٩٩/١.

(٧) ينظر: الدرر الكامنة، ١٥٦/٢، وطبقات المفسرين للداوودي، ١٤٣/١.

التعريف بحاشية الإمام الطيبي على الكشاف، وطريقته في تأليفها:

- تحقيق عنوان الحاشية: يقول الطيبي في مقدمة حاشيته:" ... وسمَّيت الكتاب بفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وجاء في الإجازة التي حررها الطيبي بخطه لمن أجازه في رواية هذا الكتاب عنه، أنه قرأ عليه خُطْبَةَ كتابه فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، مما يؤكد على صحة عنوان الحاشية كما يوجد أدلة كثيرة على ذلك "(١).

ويذكر كل من ترجم للطيبي أن له حاشية على الكشاف أو شرحاً له، وبعضهم يذكر هذه الحاشية كاملاً: [فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب]، وبعضهم يذكره مختصراً :[فتوح الغيب، أو الفتوح](٢).

- الباعث على تأليف الحاشية: لعل الباعث على تأليف الإمام الطيبي لحاشيته " فتوح الغيب " ما ذكره في مقدمته لها من بيان محاسن الإسلام ومذهب أهل السنة، والرد على الفرق التي تفسر القرآن الكريم وفق معتقداتها وأهوائها، لذلك ألف حاشيته لشرح كشاف الزمخشري لكونه من أقوى كتب المعتزلة وإليها ينسب صاحبها ويجهر بمبادئها، حيث بلغ الكشاف حداً في الغموض وراء حدّ حلّ الألغاز، مما دفع الطيبي إلى شرحه.

تعقيب: أرى أن شهادة هؤلاء العلماء وغيرهم كافية للتدليل على قيمة هذه الحاشية، وأهميتها، لا سيما في مجال العقيدة، وبروز شخصية الطيبي الواضحة في الحاشية، من خلال مناقشاته وتحليلاته للزمخشري، وطرحه للمسائل العقدية وأجوبته عنها بجواب كافٍ.

- طريقة الطيبي ومنهجه في الحاشية: تتضح طريقة الطِّيبِي التي سلكها، والمنهج الذى قصده وسار عليه في حاشيته على الكشاف، من خلال تسميته لها بـ [فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب] والتي قام فيها بشرح مجمل الكشاف، إذ كثيراً ما يجمل الزمخشري ما يريده بعبارة موجَزه يصعبُ إدراك معناها على بعض الأفهام، فيعمد الطيبي إلى شرح ذلك وتفصيله لتوضيحه، وحل معضله، وتلخيص مُسْهبه، وتخليص مبهمة الناشئ عن الإجمال أو الإسهاب أو الإشكال، وقد يورد قول الزمخشري ويعترض عليه، مؤيداً اعتراضه ووجهة نظره بالأدلة، فقد سلك الطيبي طريقة القول في شرح الكشاف، وهي طريقة معروفة لدى شُرّاح الكتب، قبل وبعد الطيبي، قوامُها أن يعْمِدَ الشارحُ إلى اختيار نصوص تطول أو تقصر من الكلام المرادِ شرحهُ، ويصدِّرَها بلفظ (قوله) يعنى: قول صاحب الكلام المراد شرحه ويذكر ذلك القولَ بلفظه كما أورده صاحبه، ثم يأخذ في شرحه أو مناقشته، وفقاً لهدفه من ذلك(٣).

تعقيب: مما تجدر الإشارة إليه؛ أن الطيبي لم يشرح كلام الزمخشري كلَّه، ولكنه اختار ما يحتاج منه إلى شرح وتوضيح، وفقاً لما رسمه من خطوط عريضة لمنهجه، ولم يقتصر الطيبي لذلك على إيراد قول الزمخشري وشرحه بل إنه اختار أحياناً آية، أو حديثاً، أو بيت شعر، أو مثلا، أو قول لبعض الناس، مما أورده الزمخشري في الكشاف ثم يشرحه ويفصل القول فيه، ويعبر عن ذلك بأنماط مختلفة.

- أما عن منهج الإمام الطيبي في بحث المسائل وتحقيقها: فقد سلك فيها طريقة السؤال والجواب، مع استشهاده بأقوال العلماء المتخصصين وكذا أقوال بعض المفسرين، في الرد على أراء الزمخشري ومناقشتها، وقد اتبع الطيبي في بحث القضايا ومناقشتها - خاصة قضايا العقيدة - طريقة الزمخشري نفسه في افتراض الأسئلة والأجوبة عليها(٤).

---

(١) ينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، ١٣٢/١.

(٢) ينظر: كشف الظنون، لحاجي خليفة، ٣٤٢/١.

(٣) ينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، حاشية الطيبي على الكشاف، ١٦/١.

(٤) ينظر: معجم المؤلفين، لعمر بن رضا بن محمد بن راغب بن عبد الغني كحالة، ٥٣/٤.

المطلب الثاني: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية:

مفهوم العقيدة الإسلامية: أصل العقيدة في اللغة: مأخوذ من الفعل عَقْدَ، وهو الجمع بين أطراف الشيء على سبيل الربط والإبرام والإحكام، والتوثيق، تقول عقد الحبل - عند استعمال الكلمة في الأجسام المادية - وعقد البيع، واليمين، والعهد أكّده ووثّقه، ومنه الفعل اعتقد بمعنى صدّق - إذا استعملت في الأمور المعنوية - ويفهم من هذا أن العقيدة في اللغة تأتي بمعنيين الأول: العقيدة بمعنى الاعتقاد، فهي التصديق والجزم دون شك. والثاني: العقيدة بمعنى ما يجب الاعتقاد به. كما تطلق على الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، من أمور التوحيد وأصول الإيمان مثل الإيمان الجازم بالله - عز وجل - وملائكته ورسله وكتبه، واليوم الأخر، والقضاء والقدر، ويرادفها الاعتقاد والمعتقَّد، وجمعها عقائد (١).

أما العقيدة اصطلاحًا: فهي الإيمان الذي لا يحتمل النقيض، وقيل: هي التصور الإسلامي الكلي اليقيني عن الله الخالق، وعن الكون والإنسان والحياة، وعما قبل الحياة الدنيا وعّما بعدها وعن العلاقة بين ما قبلها وما بعدها. فالعقيدة تتناول مباحث الإيمان والشريعة وأصول الدين والاعتقادات، كالإيمان الجازم بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وسائر ما ثَبَتَ من أُمور الغيب، وأُصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله – تعالى - في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله (ﷺ). فالعقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين وتصح معه الأعمال، وهي الثوابت العلمية والعملية التي يجزم ويوقن بها المسلم (٢).

وجوهر العقيدة الإسلامية هو: التوحيد، ونظرًا لأهمية العقيدة الإسلامية وضرورة ثباتها فلها مصدران رئيسيان هما أساس الدين؛ الأول: القرآن الكريم (كلام الله)، والثاني: الأحاديث الواردة عن النبي (ﷺ)، ولذلك لابد فيها من التسليم لله تعالى ورسوله (ﷺ) وإنَّ خالفت الآراء؛ فالله هو الشارع، والرسول (ﷺ) موكل بنقل تلك العقيدة، لذلك فإن معرفة العقائد الإيمانية، وإقامة الأدلة عليها من الكتاب والسنة والعقل واجب شرعي.

محاور وموضوعات علم العقيدة: تدور موضوعات علم العقيدة حول ثلاثة محاور وهي:

أولاً/ الذات الإلهية: (الإلهيات) وتبحث في الخالق - سبحانه وتعالى - من حيث صفاته الواجبة كالعلم والقدرة والوجود، والصفات الجائزة في حقه - سبحانه وتعالى - وهي التي لا تخالف كماله المطلق، كبعث الرسل، وإنزال الكتب السماوية، وما يتنزه عنه، وما لا يصح أن يوصف به، وهي الصفات المستحيلة عليه، كالجهل والعجز، وحقوقه على الناس(٣).

ثانياً/ رسل الله: (النبوات) وتبحث عن مكانتهم وما يجب فيهم، مثل الصدق والأمانة، وما يجب عليهم كالتبليغ والفطانة، وكذلك ما يجوز في حقهم، كالمرض والصحة والموت، وما يستحيل عليهم مثل الكذب والخيانة، وما لهم على العباد من حق فهي تبحث في بيان ما يجب وما يجوز وما يستحيل على الرسل - عليهم السلام -.

ثالثاً/ الأمور الغيبية: (السمعيات): وهي ما ورد عن الله - جل وعلا - ورسوله (ﷺ) من أمور غيبية ليس للعقل سبيل لمعرفتها، أو إدراكها، ولو مؤقتًا، مثل أشراط الساعة، وأحداث يوم القيامة، وما إلى ذلك. فهي الأمور السمعية التي لا تثبت إلا بإخبارٍ من الرسول اعتمادًا على الوحي، كالبعث والحساب والثواب والعقاب، والجنة والنار وسؤال القبر، ونعيمه(٤).

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية، ٦١٤/٢. الناشر: دار الدعوة، ٢٠٠٤م.

(٢) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسُسُهَا، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، (ص٣٢).

(٣) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين على بن محمد بن أبي العز الحنفي، (ص١١).

(٤) شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتا زاني الشافعي ١٧٣/١.

المطلب الثالث: من مسائل العقيدة في حاشية الإمام الطيبي على تفسير الكشاف للزمخشري:

المسألة الأولى: إسناد الختمُ على القلوب إلى الله - سبحانه وتعالى - وإسنادهُ إليه يدلُّ على المنع من قبول الحق وهو قبيح، واللهُ يتعالى عن فعل القبيح علوًّا كبيرًا ؟:
- وفيها رأي أهل السنة والجماعة(١) في مسألة خلق الأفعال -:

قال الإمام الطيبي - رحمه الله - عند تفسيره لقول الله - تعالى -: ﭽ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟﭠ ﭡ ﭢ ﭣﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭼ (البقرة:٧)؛ :" قوله: - يقصد قول الإمام الزمخشري في كشافه - ((فلم أُسنِدَ الَختْمُ إلى الله ... إلى آخره))، هذا السؤال والجواب مبنيٌّ على مذْهَبِه - الاعتزالي - والسؤال الأول والجواب مُشْتَرَكٌ بينهم وبينَ أهلِ السُّنّة، والمراد بالختم والتغشية أن يُحْدِثَ في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي واستقباحِ الإيمانِ والطاعات، وقلتُ: فالإحداث فعل الله حقيقة، والختم والتغشية مجاز. وقوله: ((وكيف يتخيل ما خيل)) تعريض بأهل السنة وتوهين لدلائلهم، يعنى أنها متخيلات لا حقيقة لها، وهي ما حكى الإمام الرازي(٢) في تفسيره: القائلون بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لهم قولان: أحدهما: أن الختم هو خلق الكفر في قلوب الكفار. وثانيهما: أنه خلق الداعية التي إذا انضمت إلى القدرة صار مجموع القدرة معها سببًا موجبًا لوقوع الكفر، وللمنع عن قبول الإيمان. وقال محيي السنة: - يقصد الإمام البغوي(٣) - معناه: حكم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق من علمه الأزلي فيهم. وقلت: تقريره أن الآية جاريةٌ مجرى السبب الموجب لكون الهدى لا ينفع فيهم، فإن الله - تعالى - لما أظهر تصميمهم على الكفر بقوله: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭼ [البقرة:٦] اتجه لسائلٍ أن يقول: ما بالهم كذلك؟ فأوقع قوله:{ ﭛ ﭜ ﭝ } إلى نهايته جوابًا منطويًا على بيان الموجب، وقد بولغ في المعنى حيث جعل الختم على القلوب ليمنع من الفكر في الدلائل المقولة الصرفة، وعلى السمع لئلا تنفذ في القلوب بسببه الدلائل المسموعة، وجعل على البصر الغشاوة لئلا تصل إليها الدلائل المبصرة ليستدلوا بها على وجود منشئها، فسد الطرق عليهم من كل وجه، أما صاحب (الانتصاف) فقد أطنب في هذا المقام، وقال: قد اشتمل كلام الزمخشري على مفاسد: ... **وقال أهل السنة والجماعة في مسألة خلق الأفعال**: إن لله - تعالى - لطفًا لو فعل بالكفار لآمنوا اختيارًا، غير أنه تعالى لم يفعل وهو في فعله متفضلٌ، وفي تركه عادلٌ، ولا يجب على الله - تعالى - الأصلحُ ولا الصلاح .... ولله در القائل: ومستودعات هذا الفن لا تتضح إلا باستبراء خاطرٍ وقاد، ولا تنكشف جواهرها إلا لبصيرة ذي طبعٍ نقاد، ثم نقول: من رفع

---

(١) يقصد بمصطلح **أهل السنة والجماعة**: أنه مصطلح يطلق باعتباره مركب إضافي، على الجماعة الذين تمسّكوا بسنّة النبيّ (ﷺ) في المسائل العلمية العقدية، والمسائل العملية الحكمية، فسبب تسميتهم أهل السنّة؛ لأنّهم تمسكوا بالسنة، أمّا سبب تسميتهم بالجماعة لاجتماعهم على تلك السنّة وعدم التفاتهم إلى ما سواها، وهم الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية التي تحدث عنها النبي (ﷺ)، فهي الفرقة المتمسكة بالكتاب والسنّة. **ينظر:** العقيدة الإسلامية وأسُسُهَا، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، (ص٤٠).

(٢) ينظر ترجمته في: طبقات المفسرين، للداودي، ٢٠٤/٣. ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ٥٤/٢.

(٣) **البغوي**: هو شَيْخُ الإِسْلاَمِ، مُحْيِي السُّنَّةِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَرَّاءِ الْبَغَوِيُّ الشَّافِعِيُّ الْمُفَسِّرُ، من تصانيفه:(شَرْح السُّنَّةِ، مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ، الْمَصَابِيحِ، التَّهْذِيبِ فِي الْمَذْهَبِ، الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ .... وغيرها الكثير)، تُوُفِّيَ بِمَرْوِ الرُّوذِ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ خُرَاسَانَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ (ت٥١٦هـ)، وَدُفِنَ بِجَنْبِ شَيْخِهِ الْقَاضِي حُسَيْنٍ، وَعَاشَ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سَنَةً. **ينظر**: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤٣٩/١٩). وينظر نص كلامه في تفسيره، معالم التنزيل، ٦٥/١.

الختم عن تفسيره لختم الله، فقد حل له الشروع في هذا الكتاب، وقد عُلِمَ أنهُ مِن رجالٍ تصَدّوْا لكشفِ الحجاب، وإلا فليترك القوس لباريها"(١).

الدراسة والتحليل: عند شرح الإمام الطيبي لكلام الإمام الزمخشري الذي دار حول قول الله تعالى: ﭽ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭼ (البقرة:٧) نجد أنه يرد ويجيب ويُعقب على الزمخشري في مسألة عقائدية هي من الأهمية بمكان، كانت محل خلاف بين المذاهب والفرق الكلامية، وهي مسألة (أفعال العباد وهل هي مخلوقة لله - تعالى- باختيار العبد أم أنه مضطر؛ بناءً على قاعدة الحسن والقبح عند الله وعند العبد، وبيان حقيقة إسناد الختم على القلوب إلى الله - تعالى -)(٢)، فإن مشكلة خلق الأفعال من أعقد القضايا التي واجهت الفكر البشري، واختلفت بشأنها الأنظار اختلافا كبيرا في شتى المذاهب الفلسفية والدينية قديما وحديثا، ومن خلال هذه المسألة يتضح لنا مذهب ومعتقد الإمام الطيبي وأنه كان يسير على منهج أهل السنة والجماعة، ويدافع عنهم، كما أنه كان يعارض الإمام الزمخشري أحيانًا ويرد عليه بأبلغ رد، ويعود به إلى جادت الصواب، مستشهدا بأقوال العلماء، كما كان يذكر رأيه في القضية ويوضح المسألة.

والمسألة المطروحة هي: لم أسند الختم في قوله تعالى: ﭽ ﭪ ﭫ ﭬ ﭼ (البقرة:٧) إلى الله تعالى وإسنادُه إليه يدلُّ على المنعِ من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علوًّا كبيرًا لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه ؟.

عرض الطيبي للمسألة ورده على الزمخشري: اتفق الإمام الطيبي مع أهل السنة والجماعة في أن أفعال العباد من خير أو شر هي من عند الله - تعالي - حيث يجوز عليه - تعالى - خلق الشر وإرادته كالخير - وإن كان لا يأمر إلا بالخير - والختم على القلوب عند أهل السنة مراده خلق الضلال فيها، كما هو واضح في علم التوحيد(٣).

- **أما عند المعتزلة**، فإنه لا يجوز عليه تعالى خلق الشر فهو يتعالى عن فعل القبيح، وعليه فإسناد الختم في الآية الكريمة إلى الله - عز وجل - هو على سبيل المجاز لا الحقيقة، لأن العبد هو الخالق لفعل نفسه، بناء على فهمهم الباطل لنصوص الشرع، واعتقادهم بأن أفعال العباد التي فيها ظلم وشر لا يمكن أن يخلقها الله - تعالى - بناء على ظنهم أن هذا من الظلم الذي ينزه الله عنه. فوضح الطيبي أن هذا السؤال وجوابه مبني عند الإمام الزمخشري على مذهب الاعتزال، وأنه يتعارض بينهم وبين أهل السنة، وأن الإجابة الأولى مشترك بين المعتزلة وأهل السنة - فقد أورد الزمخشري للإجابة على هذا السؤال خمسة أوجه(٤) -

---

(١) فتوح الغيب، للطيبي، ١٣٢/١: ١٤٣، وينظر نص كلام الزمخشري في الكشاف، ٤٩/١: ٥٢.

(٢) **يقصد بقاعدة الحسن والقبح**: بأنها مسألة التّحسين والتّقبيح؛ وهي عند المعتزلة أنَّ للأفعال حسنًا وقبحًا ذاتيين، يعرفان بالعقل، أما الأشاعرة بخلاف ذلك؛ يقولون: الأفعال كلّها حكمها سواء؛ يعني الشّرك والتّوحيد مِن حيث ذاتهما سواء، والصّدق والكذب مِن حيث ذاتهما سواء، لكن الشّرع فرّق بين ذلك، فيُثبتون الحُسْن والقبح الشّرعيين، والمعتزلة يثبتون العقليين، والصّواب هو ما عليه أهل السنة: إثبات الحُسْن والقبح الشّرعيين والعقليين، مثل التّوحيد والشّرك؛ فالتّوحيد حسنٌ عقلًا وشرعًا، والشّركُ قبيحٌ عقلاً وشرعًا، وهكذا، فأفعال العباد من خير أو شر - حسن وقبح - هي من عند الله - تعالى - حيث يجوز عليه تعالى خلق الشر وإرادته كالخير - وإن كان لا يأمر إلا بالخير - أما عند المعتزلة: فإنه لا يجوز عليه - تعالى - خلق الشر فهو يتعالى عن فعل القبيح، وأنه من فعل العبد نفسه دون الله -عز وجل-. **ينظر**: المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار، ٤/٨. الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص٢٩). الاعتقاد للبيهقي (ص١٤٢). الملل والنحل للشهرستاني، ١١٣/١.

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص١٣٨). وأصول الدين له أيضًا (ص١٣٤).

(١) الوجه الأول: أنها كالمختوم عليها، الثاني: الختم على سبيل ضرب المثل، الثالث: أنها استعارة مجازية، الرابع: تصميمهم على الكفر ختم قلوبهم، الخامس: هو حكاية عن كفرهم. **ينظر:** الكشاف ٤٩/١.

لذلك بيّن الإمام الطيبي موقف الإمام الزمخشري من رأي أهل السنة والجماعة في مسألة أفعال العباد، وذلك عند شرحه لمعنى قول الزمخشري :(وكيف يتخيل ما خيل) بأنه :(تعريض بأهل السنة وتوهين لدلائلهم، يعنى أنها متخيلات لا حقيقة لها)، ثم ينتصر لقول أهل السنة بذكره لأقوال العلماء في المسألة، كما يذكر رأيه بأن الآية جارية مجرى السبب الموجب لكون الهدى لا ينفع فيهم لما ظهر من تصميمهم على الكفر. وأن ختم الله عز وجل على قلوب الكافرين بالكفر، لما سبق من علمه أزلًا أنهم لن يؤمنون، لذا سد الطريق عليهم من كل وجه، وعندما نقول بأن الله هو الخالق لأفعال العباد، فإننا لا ننفي أن يكون الإنسان عاملاً مكتسباً يستحق المدح والذم بحسب عمله. ثم وضح الإمام الطيبي رأي أهل السنة والجماعة في خلق أفعال العباد بقوله: وقال أهل السنة والجماعة في مسألة خلق الأفعال: إن لله تعالى لطفاً لو فعل بالكفار لآمنوا اختياراً، غير أنه تعالى لم يفعل وهو في فعله متفضلٌ، وفي تركه عادلٌ، ولا يجب على الله تعالى الأصلحُ ولا الصلاح. كما رد على تهجم الزمخشري على أهل السنة(١).

<u>بيْن الزمخشري والطيبي</u>: حمل الزمخشري الختم في الآية على المجاز، وأوّلَ الآية بما يتفق مع مذهبه الاعتزالي من نفي القبيح عن الله - تعالى - وشبهة صاحب الكشاف في الآية هي: أن {الختم} قبيح ولا يجوز إسناده إلى الله - تعالى- كما أنه تعالى يكون خالقا لأفعال العباد فكيف يخلق فعلهم ويحاسبهم عليه.

إلا أن الطيبي تعقبه ببيان أن السؤال الذي أورده مبنى على مذهب المعتزلة، القائل: بعدم إسناد القبيح إلى الله تعالى، وأنه لا يخلق القبيح، وهذا مخالف لمذهب أهل السنة القائل: بخلق الله تعالى لكل شيء، ووضح الطيبي أن الإحداث من الله تعالى حقيقي، وجعل الآية جارية مجرى السبب الموجب لكون الهدى لا ينفع فيهم، لأنه تعالى علم تصميمهم على الكفر، بدليل قوله تعالى: ﭽ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭼ [البقرة:٦]، فأوقع قوله: ﭽ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭼ (البقرة:٧) جوابًا منطويًا على بيان الموجب، وهذا يظهر حسن جواب الطيبي، وعرضه للمسألة.

- **كما رد ابن المنير الإسكندري(ت٦٨٣هـ)**، على الزمخشري فقال:" قال محمود رحمه الله: - يقصد الزمخشري- «فان قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى ... الخ»؟ وهذا أول عشواء خبطها في مهواة من الأهواء هبطها، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويله ابتغاء الفتنة استبقاء لما كتب عليه من المحنة، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردها: <u>الأولى</u>: مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى. <u>الثانية</u>: مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل، كأمثال قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} (الرعد:١٦)، {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ} (فاطر:٣). وهذه الآية أيضا فإن الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصًا. <u>الثالثة</u>: الفرار من نسبة ما اعتقد قبحًا إلى الله تعالى تنزيها، على زعمه أن الاشراك به في اعتقاد أن الشيطان هو الذي يخلق الختم والكافر يخلفه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه. فلقد استوخم من السنة المناهل العذاب وورد من حميم البدعة موارد العذاب. <u>الرابعة</u>: الغلط باعتقاد أن ما يقبح شاهدا يقبح غائبا، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحا في الشاهد وجب على زعمه أن يكون قبيحا من الغائب. وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها. <u>الخامسة</u>: اعتقاده أن ذلك لو فرض وجوده بقدرة الله تعالى لكان ظلما، والله تعالى منزه عن الظلم بقوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} (ق:٢٩)، ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم فإنه

(٢) **قلت**: كلام الطيبي فيه تعريض بالزمخشري، وأنه على فرط ذكائه وعلمه - أي: الزمخشري - إلا أنه قد بدرت منه هفوات في تفسيره تخالف نهج أهل السنة، كانت ذريعة إلى التنفير مما اشتمل عليه كتابه من اعتزال. والحق: أن الأمر متعلق بعلم الله تعالى الأزلي، والمرء يأتي بفعله بمحض إرادته دون جبر.

التصرف في ملك الغير بغير إذنه. فكيف يتصور ثبوت حقيقته لله تعالى؟ وكل مفروض محصور بسور ملكه تعالى. السادسة: أنه فر من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى فتورط فيه إلى عنقه لأنه قد جزم بأن المنع من قبول الحق، لو كان من فعل الله تعالى لكان ظلما. فيقال له: وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى فيلزمك أن يكون ظلما - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - والخيال الذي يدندن حوله هؤلاء: أن أفعال العبد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها على عباده ولا عاقبهم ولا قامت حجة الله عليهم. وهذه الشبه قد أجراها في أدراج كلامه المتقدم، فيقال لهم: لم قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله لما نعاها على عباده؟ فان أسندوا هذه الملازمة - وكذلك يفعلون - إلى قاعدة التحسين والتقبيح وقالوا: معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل فيلزم طرد ذلك غائباً. قيل لهم: ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القبائح والفواحش بمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك من القدرة على ردعه ورده من الأول عنها "(١).

قلت: أغلب المفسرين حمل الآية على الحقيقة من جهة إسناد الختم إلى الله تعالى، عن طريق إحداث هيئة تمنعهم من الإيمان به، ففاعل الختم في الآية صريح وهو الله تعالى. وبعض المفسرين جعل كفرهم وعنادهم سببا للختم على قلوبهم أخذًا بظاهر الآيات. والكل صحيح لأن الأمر متعلق بعلم الله الأزلي(٢)

المسألة الثانية: رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة، وأقوال المذاهب فيها، وكيف وفق الإمام الطيبي بين إثبات رؤية الله - تعالى - عند أهل السنة، ونفي الرؤية عند المعتزلة ؟:

قال الإمام الطيبي - رحمه الله - عند تفسيره لقول الله تعالي: وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

(الأعراف:١٤٣)؛ :" قوله: - يقصد قول الإمام الزمخشري في كشافه - ((الرؤية عين النظر)) أي: النظر مقدم على الرؤية، فإنه عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته، وقد يتخلف عنه، فكيف جعله مؤخرًا عنه؟ ويروى - في الكشاف -: الرؤيةُ عين النظر؛ ويؤيد الأول قوله في سورة الشعراء:(الاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية، لأن الاستماع جارٍ مجرى الإصغاء) **وتقرير هذا السؤال**: أن (أرني) تكفي في الطلب، لأنه تعالى إذا أراه نفسه لابد له أن ينظر إليه، فما فائدة إردافه؟ **وأجاب**: بأن فائدته التأكيد والكشف التام، فإنه لما أردفه به أفاد طلب رفع المانع وكشف الحجاب، والتمكين من الرؤية بحيث لا يتخلف عنه النظر إليه، نحوه قولك: نظرت بعيني، وقبضت بيدي، فالنظر حينئذٍ مسبب. فلذلك أدخل المصنف - الزمخشري - الفاء في قوله: [فأنظر]، ثم سأل: فكيف قال :(لن تراني)؟ وأتى بالفاء، أي: إذا كان النظر هو الغرض وهو الذي طلب له الآراءة، كان من الواجب أن يقال: لن تنظر. **وأجاب**: وإن كان الغرض النظر، لكن المطلوب الذي عليه التعويل طلب التجلي وكشف الحجاب، إذ به يحصل الإدراك التام ولولاه لا يجدي النظر شيئًا. ألا ترى كيف أتبع [وأراك]: (فأنظر) في الجواب الأول؟ فكأنه قيل: [اجعلني متمكنًا من رؤيتك، فأنظر إليك وأراك].

---

(١) الانتصاف بحاشية الكشاف، لابن المنير، ١/١٦٥.

(٢) ينظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/٨. وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٩٠. وإرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي ١/٣٧. والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١/٥٣٠.

وقلت - أي الطيبي -: **وهاهنا سؤال آخر**: وهو أنه كيف قيل: (لن تراني) ولم يقل: لن أريك نفسي، لقوله: (أرني)؟ **والجواب**: إنما عدل عن لن أريك، للتفادي عن الإياس، وحسم الطمع. يعني: لن تراني ما دمت على حالة أنت فيها، فإذا ارتفع المانع أريك نفسي لتنظر إليه. وهذا معنى قول ابن عباس: لن تراني في الدنيا، والجواب من الأسلوب الحكيم، فإذن معنى قوله: {أرني أنظر إليك} أن المانع من الرؤية كوني غير متمكنٍ منها، لاحتجابك عني فأرفع الحجاب بيني وبينك، لأنظر إليك وأراك، وذلك حين سمع الخطاب والكلام القديم بغير واسطة. ومعنى قوله: {لن تراني} أن المانع ليس إلا من جانبك، وأني غير محجوب، بل متحجب بحجابٍ منك، وهو كونك فانيًا في فانٍ وأنا باقٍ، ووصفي باقٍ فإذا جاوزت قنطرة الفناء، ووصلت إلى دار البقاء، فزْتَ بمطلوبِك. "(١).

<u>الدراسة والتحليل:</u> في هذه المسألة التي تتحدث عن حكم رؤية الله - عز وجل -؛ يرد الإمام الطيبي على كل كلمة ذكرها الإمام الزمخشري، والذي تعصب لمذهبه الاعتزالي في توضيح مفهوم تلك الآية الكريمة، وغيرها من الآيات التي تثبت الرؤية لله تعالى(٢)، واستغل علمه بفنون البلاغة والمحسنات البديعية، والإغراق في الوصف، والإدماج والتخلص، وذلك ليصل بنا إلى تأْويل الآية على وفق مذهبه القائل بجحود الرؤية، ونفيها، وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لذلك رد الإمام الطيبي على الزمخشري مستشهدًا بكلام بعض علماء أهل السنة [كالإمام ابن المنير الإسكندري، في حاشيته الانتصاف على الكشاف، والقاضي البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل، والإمام الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، وصاحب الفرائد الإمام الراغب الأصفهاني، ومحي السنة الإمام البغوي في تفسيره معالم التنزيل(٣)]، وذلك في مسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها تتعلق بحكم رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة، وقد قال: بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام الموافقين لأهل السنة.

فناقش الطيبي مسألة رؤية الله -عز وجل- يوم القيامة، ووضحها بكلام مفصل يشفي العليل، ووضح المراد من كلام الله عز وجل وفق منهج أهل السنة والجماعة، وأبطل رأي المعتزلة وغيرها من الفرق ممن ينكرون الرؤية، مستشهدًا بأقوال أهل العلم الموافقين لنفس مذهبه السُني. القائل: بأن رؤية الله - تعالى - جائزة عقلا وواقعة فعلا في الآخرة، واستدلوا على ذلك بالنقل والعقل، وأن المؤمنين يرون ربهم عيانًا بأبصارهم في عرصة القيامة بلا حجاب، وفي الجنة يزورهم ويكلمهم ويكلمونه، مؤكدين على ذلك بما جاء في القرآن الكريم من آيات تثبت وتؤكد رؤيته تعالى يوم القيامة، وما جاء في السنة النبوية المطهرة.

<u>ولتمام البحث في المسألة؛ أذكر كلام الإمام الزمخشري باختصار، وتعصبه لمذهبه الاعتزالي في حكم رؤية الله -عز وجل-، ثم أُتْبِعُه برأي بعض أهل التفسير وأهل الكلام عند تفسيرهم لتلك الآية الكريمة وذلك لنقف على الرأي الصحيح، والتوفيق بين إثبات رؤية الله -عز وجل- عند أهل السنة، ونفي الرؤية عند المعتزلة، وذلك على النحو التالي:</u>

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب - حاشية الطيبي على الكشاف، ٥٤٧/٦: ٥٦٨.

(٢) تكرر الكلام عن رؤية الله - عز وجل - في أكثر من موضع في القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة (البقرة:٥٥)، وفي (الأنعام:١٠٣)، وفي (الأعراف: ١٤٣)، وفي (يونس:٢٦)، وفي (ق:٣٥)، وفي (النجم:١١)، وفي (القيامة:٢٢،٢٣) ... وغيرها من الآيات التي تحدثت عن الرؤية، وجواز وقوعها يوم القيامة. وينظر تفسيرها في: فتوح الغيب، حاشية الطيبي على الكشاف، (١٤٠/٢)، (١٦١/٥)، (١٧٩/٦).

(١) ينظر: الانتصاف لابن المنير الإسكندري، ٣٢٠/١، أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٣/١، مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ٢٣/٢، فرائد القرآن ورغائب الفرقان للراغب ١٥٩/١، معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٥/١.

- يقول الإمام الزمخشري في كشافه(١) :" ... {ۇ ۆ ۈ} أي: أرني نفسك أنظر إليك. **فإن قلت**: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: {أرني أنظر إليك}؟ **قلت**: معنى [أرني نفسك]: اجعلني متمكنًا من رؤيتك بأن تتجلى لي، فأنظر إليك وأراك. **فإن قلت**: فكيف قال: {لَنْ تَرانِي}، ولم يقل: لن تنظر إليّ؛ لقوله: {أَنْظُرْ إِلَيْكَ}؟ **قلت**: لما قال: (أَرِنِي) بمعنى: اجعلني متمكنًا من الرؤية التي هي الإدراك، علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه، فقيل: (لن تراني) ولم يقل: لن تنظر إليّ. **فإن قلت**: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك، وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصحّ فيما كان في جهة، وما ليس بجسمٍ ولا عرضٍ فمحالٌ أن يكون في جهة، ومنعُ المجبرة إحالته في العقول غير لازم، لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون طالبه وقد قال: - حين أخذت الرجفة الذين قالوا: أرنا الله جهرة - {أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا} (الأعراف:١٥٥) إلى قوله: {تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ} (الأعراف:١٥٥) فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالاً ؟ **قلت**: ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ، ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لا بُدَّ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله :{لَنْ تَرانِي}، ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة، فلذلك قال :{رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} ... فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكاً، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك؛ مبالغةً في إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه، وقال: أنا أول المؤمنين، ثم تَعَجَّبْ من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة، فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لَجماعةُ سَمَّوْا هَواهُمْ سُنَّةً * وجَماعَةً حُمُر لَعَمْري مُوكَفَهْ**
قد شَبّهُوهُ بخَلْقِهِ وتَخَوّفُوا * شُنْعَ الوَرى فَتَستّرُوا بالبَلْكَفَهْ**(٢).

وتفسير آخر: وهو أن يريد بقوله: {أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}: عرّفني نفسك تعريفًا واضحًا جليًا، كأنها إراءةٌ في جلائها، بآيةٍ مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك، {أَنْظُرْ إِلَيْكَ}: أعرفك معرفة اضطرار، كأني أنظر إليك، كما جاء في الحديث:[سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر](٣)، بمعنى: ستعرفونه معرفة جليةً هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى. {قالَ لَنْ تَرانِي} أي: لن تُطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة. {وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} فإني أورد عليه وأظهر له آيةً من تلك الآيات، فإن ثبت لتجليها واستقرّ مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطبيقها، {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ

---

(٢) سوف أذكر كلام الإمام الزمخشري بتمامه، لنرى كيف أنه أوّل النص على وفق مذهبه الاعتزالي، واستغل علمه بفنون البلاغة، والبيان، والمحسنات البديعية، والإغراق في الوصف، والإدماج والتخلص، لتأويل الآية على وفق مذهبه القائل: بجحود الرؤية وإنكار حدوثها. واستغل ذلك أيضًا عند تفسيره للآية (٢٦) من سورة يونس، وللآية (١١) من سورة النجم **ينظر**: (الكشاف للزمخشري، ٣٤٢/٢، ٤٢٠/٤).

(١) عاب أهل السنة على بيتي الإمام الزمخشري وأكثروا القول في معارضتهم لهما، كما ردوا على الإمام بما يؤكد ثبوت رؤية الله عز وجل يوم القيامة. **ينظر**: التمييز لما أودعه الزمخشري في كتابه من الاعتزال في الكتاب العزيز، لأبي علي عمر بن محمد بن حمدين خليل السكوني المغربي المالكي، ١٣٧/٢.

(٢) **حديث صحيح**: رواه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﭽ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭼ (القيامة:٢٢،٢٣)، (٢٨٣/٤)، (حديث رقم ٧٤٣٤).

لِلْجَبَلِ}: فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته، {جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً} لعظم ما رأى، {فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ} مما اقترحت وتجاسرت "(١).

- **رد عليه الإمام الفخر الرازي(ت٦٠٦هـ)**، في تفسيره فقال:" هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجُوزُ أَنْ يُرَى، وَتَقْرِيرُهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ. **الْأَوَّلِ**: أَنَّ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ الرُّؤْيَةَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكُونُ عَارِفًا بِمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَوْ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ مُمْتَنِعَةً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لَمَا سَأَلَهَا وَحَيْثُ سَأَلَهَا عَلِمْنَا أَنَّ الرُّؤْيَةَ جَائِزَةٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى. **الثَّانِي**: مِنَ الْوُجُوهِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى جَائِزُ الرُّؤْيَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ كَانَ مُسْتَحِيلَ الرُّؤْيَةِ لَقَالَ: لَا أُرَى أَلَا تَرَى. فَلَمَّا قَالَ تَعَالَى: {لَنْ تَرانِي} وَلَمْ يَقُلْ [لَا أُرَى] عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ جَائِزُ الرُّؤْيَةِ. **الثَّالِث**: مِنَ الْوُجُوهِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى عَلَّقَ رُؤْيَتَهُ عَلَى أَمْرٍ جَائِزٍ وَالْمُعَلَّقُ عَلَى الْجَائِزِ جَائِزٌ فَيَلْزَمُ كَوْنُ الرُّؤْيَةِ فِي نَفْسِهَا جَائِزَةً. إِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّهُ تَعَالَى عَلَّقَ رُؤْيَتَهُ عَلَى أَمْرٍ جَائِزٍ لِأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّقَ رُؤْيَتَهُ عَلَى اسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي} وَاسْتِقْرَارُ الْجَبَلِ أَمْرٌ جَائِزُ الْوُجُودِ فِي نَفْسِهِ فَثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى عَلَّقَ رُؤْيَتَهُ عَلَى أَمْرٍ جَائِزِ الْوُجُودِ فِي نَفْسِهِ. إِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ أَنْ تَكُونَ رُؤْيَتُهُ جَائِزَةَ الْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ الشَّرْطُ أَمْرًا جَائِزَ الْوُجُودِ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ فَرْضِ وُقُوعِهِ مُحَالٌ فَبِتَقْدِيرِ حُصُولِ ذَلِكَ الشَّرْطِ. **فَإِنْ قِيلَ**: إِنَّهُ تَعَالَى عَلَّقَ حُصُولَ الرُّؤْيَةِ عَلَى اسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ حَالَ حَرَكَتِهِ وَاسْتِقْرَارُ الْجَبَلِ حَالَ حَرَكَتِهِ مُحَالٌ. فَثَبَتَ أَنَّ حُصُولَ الرُّؤْيَةِ مُعَلَّقٌ عَلَى شَرْطٍ مُمْتَنِعِ الْحُصُولِ لَا عَلَى شَرْطٍ جَائِزِ الْحُصُولِ فَلَمْ يَلْزَمْ صِحَّةُ مَا قُلْتُمُوهُ؟ فَثَبَتَ أَنَّ الشَّرْطَ الَّذِي عَلَّقَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى حُصُولِهِ حُصُولَ الرُّؤْيَةِ هُوَ كَوْنُ الْجَبَلِ مُسْتَقِرًّا حَالَ كَوْنِهِ مُتَحَرِّكًا وَأَنَّهُ شَرْطٌ مُحَالٌ، **وَالْجَوَابُ**: هُوَ أَنَّ اعْتِبَارَ حَالِ الْجَبَلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُغَايِرٌ لِاعْتِبَارِ حَالِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُتَحَرِّكٌ أَوْ سَاكِنٌ وَكَوْنُهُ مُمْتَنِعَ الْخُلُوِّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ لَا يَمْنَعُ اعْتِبَارَ حَالِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُتَحَرِّكٌ أَوْ سَاكِنٌ. **الرابع**: مِنَ الْوُجُوهِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي إِثْبَاتِ جَوَازِ الرُّؤْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا } وَهَذَا التَّجَلِّي هُوَ الرُّؤْيَةُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ يُجَلِّي لِذَلِكَ الشَّيْءِ وَإِبْصَارَ الشَّيْءِ أَيْضًا يُجَلِّي لِذَلِكَ الشَّيْءِ. إِلَّا أَنَّ الْإِبْصَارَ فِي كَوْنِهِ مُجَلِّيًا أَكْمَلُ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ وَحَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَفْهُومِ الْأَكْمَلِ أَوْلَى. الثَّانِي: أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْآيَةِ تَقْرِيرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُطِيقُ رُؤْيَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِدَلِيلِ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ عَظَمَتِهِ لَمَّا رَأَى اللَّهَ تَعَالَى انْدَكَّ وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ وَلَوْلَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّجَلِّي مَا ذَكَرْنَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ هَذَا الْمَقْصُودُ. فَثَبَتَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا } هُوَ أَنَّ الْجَبَلَ لَمَّا رَأَى اللَّهَ تَعَالَى انْدَكَّتْ أَجْزَاؤُهُ وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى جَائِزُ الرُّؤْيَةِ فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ الْأَرْبَعَةِ دَلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى جَائِزُ الرُّؤْيَةِ.

أَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَقَالُوا: إِنَّهُ ثَبَتَ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ أَنَّهُ تَعَالَى تَمْتَنِعُ رُؤْيَتُهُ فَوَجَبَ صَرْفُ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ إِلَى التَّأْوِيلَاتِ. أَمَّا دَلَائِلُهُمُ الْعَقْلِيَّةُ فَقَدْ بَيَّنَّا فِي الْكُتُبِ الْعَقْلِيَّةِ ضَعْفَهَا وَسُقُوطَهَا فَلَا حَاجَةَ هُنَا إِلَى ذِكْرِهَا. وَأَمَّا دَلَائِلُهُمُ السَّمْعِيَّةُ فَأَقْوَى مَا لَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ التَّمَسُّكُ بِقَوْلِهِ تعالى:{لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ} [الانعام:١٠٣] اعْلَمْ أَنَّ الْقَوْمَ تَمَسَّكُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عَدَمِ الرُّؤْيَةِ مِنْ وُجُوهٍ. الْأَوَّلُ: التَّمَسُّكُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَنْ تَرانِي} وَتَقْرِيرُ الِاسْتِدْلَالِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَرَى اللَّهَ الْبَتَّةَ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْقِيَامَةِ، وَمَتَى ثَبَتَ هَذَا ثَبَتَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهُ الْبَتَّةَ، وَمَتَى ثَبَتَ هَذَا ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنِعُ أَنْ يُرَى فَهَذِهِ مُقَدِّمَاتٌ ثَلَاثَةٌ. الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ خَرَّ صَعِقًا وَلَوْ كَانَتِ الرُّؤْيَةُ جَائِزَةً. فَلِمَ خَرَّ عِنْدَ سُؤَالِهَا صَعِقًا؟ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ لِلتَّنْزِيهِ

---

(٣) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ٢/١٥١: ١٥٧.

فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ تَنْزِيهَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَالَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ هُوَ رُؤْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَ قَوْلُهُ: سُبْحانَكَ تَنْزِيهًا لَهُ عَنِ الرُّؤْيَةِ فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهُ اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ، فَوَجَبَ كَوْنُ الرُّؤْيَةِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ مُحَالٌ فَثَبَتَ أَنَّ الرُّؤْيَةَ عَلَى اللَّهِ مُمْتَنِعَةٌ. الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ مُوسَى لَمَّا أَفَاقَ أَنَّهُ قَالَ: تُبْتُ إِلَيْكَ، وَلَوْلَا أَنَّ طَلَبَ الرُّؤْيَةِ ذَنْبٌ لَمَا تَابَ مِنْهُ وَلَوْلَا أَنَّهُ ذَنْبٌ يُنَافِي صِحَّةَ الْإِسْلَامِ لَمَا قَالَ: {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَنَا قَالُوا: الرُّؤْيَةُ كَانَتْ جَائِزَةً إِلَّا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَهَا بِغَيْرِ الْإِذْنِ وَحَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سيئات المقربين، فكانت التوبة عَنْ هَذَا الْمَعْنَى لَا عَمَّا ذَكَرُوهُ، فَهَذَا جُمْلَةُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ»: ثَانِي مَفْعُولَيْ أَرِنِي مَحْذُوفٌ أَيْ أَرِنِي نَفْسَكَ أَنْظُرْ إِلَيْكَ وَفِي لَفْظِ الْآيَةِ سُؤَّلَاتٍ - طرحها الإمام الرازي ورد عليها، ثم قال: - أَمَّا قَوْلُهُ: {قَالَ سُبْحانَكَ} أَيْ تَنْزِيهًا لَكَ عَنْ أَنْ يَسْأَلَكَ غَيْرُكَ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَفِيهِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْ سُؤَالِ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا. الثَّانِي: تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْ سُؤَالِ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} بِأَنَّكَ لَا تُرَى فِي الدُّنْيَا أَوْ يُقَالُ :{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ السؤال منك إلا بإذنك "(١).

تعليق: الإمام الرازي أفلح في الرد على المعتزلة وعلى الإمام الزمخشري، وردهم إلى نحورهم، وأيد رأي أهل السنة والجماعة القائل: بأن المؤمنين يرون ربهم -جل وعلا- يوم القيامة، فالمقصود أن رؤية الله -جل وعلا- ثابتة عند أهل السنة والجماعة، يراه المؤمنون في الجنة وفي عرصات القيامة، كما يشاء - سبحانه وتعالى - لكن لا يحيطون به كما قال: ﭼ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [الأنعام:١٠٣] يعني لا تحيط به، فهم يرونه - جل وعلا - رؤية حقيقية كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، فمن أراد ذلك فليستقم على دين الله؛ لأن هذا من أسباب رؤية الله يوم القيامة في الجنة فلا يراه إلا المؤمنون، أما الكفار فلا يرون الله - عز وجل - بدليل قوله :{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥].

- **وجاء في موسوعة الفرق الإسلامية ما نصه:**" ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن رؤية الله تعالى جائزة عقلا وواقعة فعلا في الآخرة، واستدلوا على ذلك بالنقل والعقل: **أولًا:** من جهة النقل استدلوا بأدلة كثيرة منها تلك الآية الكريمة وهي قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف:١٤٣].

والاستدلال بالآية جاء من وجوه: الوجه الأول: أن موسى - عليه السلام - سأل الرؤية ولو امتنع كونه تعالى مرئيا لما سأل، لأنه حينئذ إما أن يعلم امتناعها أو يجهله، فإن علمه فالعاقل لا يطلب المحال الممتنع لأنه عبث ينزه الأنبياء عنه، وإن جهله فالجاهل بما لا يجوز على الله ويمتنع لا يكون نبيا كليما، فلا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم، أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه.

الوجه الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولم ينهه ولا أيأسه لما طلب الرؤية، ولو كانت محالة لأنكر عليه، فقد أنكر جل وعلا على نوح لما سأله نجاة ابنه قال: {إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [هود:٤٧]. وحينما قال الخليل: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي

(١) ينظر: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير = تفسير الرازي، ٣٥٧:٣٥٣/١٤.

الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة:٢٦٠]. لم ينكر عليه سؤاله الاستحالة.

الوجه الثالث: أن الله تعالى أجابه بقوله: {لَن تَرَانِي} وهذا دليل على الجواز فلو كانت الرؤية مستحيلة عليه لقال:(لا تراني، أو لست بمرئي، أو لا تجوز رؤيتي) والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، ففي قوله في الجواب: {لَن تَرَانِي} دليل على أنه سبحانه وتعالى يرى، ولكن موسى عليه السلام لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤية العلي العظيم. فلذلك قال:{لَن تَرَانِي}، فأما في الآخرة فإن الله تعالى ينشئ خلقه فيركب أسماعهم وأبصارهم للبقاء فيراه أولياؤه جهرا كما قال رسول الله (ﷺ)(١).

الوجه الرابع: أنه - تعالى - علق الرؤية على أمر جائز، وهو استقرار الجبل والمعلق على الجائز جائز، فيلزم كون الرؤية في نفسها جائزة.

الوجه الخامس: تجلى الله تعالى للجبل وهذا التجلي هو الظهور. والمقصود إعلام نبي الله موسى أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى، حيث إن الجبل مع قوته وصلابته لما رأى الله تعالى اندك وتفرقت أجزاؤه فبدا مسوي بالأرض مدكوكًا، وحيث جاز تجلي الله للجبل ورؤيته له وهو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه.

الوجه السادس: أن من جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يُسمَع مخاطبة كلامه بغير وساطة؛ فرؤيته أولى بالجواز، وكليم الله أعرف الناس به في زمانه، لما سمع كلامه ومناجاته له من غير وساطة، اشتاقت نفسه إلى رؤيته، لعلمه عدم التفريق بين الرؤية والكلام، لهذا فلا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم "(٢).

- وقال الإمام الألوسي البغدادي(٣)، عند تفسيره لقوله تعالى:{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} (المطففين:١٥) ليؤكد على وقوع الرؤية :" عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ، لا يرونه - سبحانه وتعالى - وهو عز وجل حاضر ناظر لهم بخلاف المؤمنين، فالحجاب مجاز عن عدم الرؤية، لأن المحجوب لا يرى ما حجب، أو الحجب المنع، والكلام على حذف مضاف أي عن رؤية ربهم لممنوعون فلا يرونه سبحانه. وقال الشافعي: لما حجب سبحانه قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا. ومن أنكر رؤيته تعالى كالمعتزلة قال: إن الكلام تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم، وهو بتقدير مضاف أي عن رحمة ربهم مثلا لمحجوبون. وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد تقدير ذلك، تقدير الكرامة لكنهم أرادوا عموم المقدر للرؤية وغيرها من ألطافه تعالى. كأنه قيل إنهم لمحجوبون عن ربهم، يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين "(٤).

---

(١) ذكره الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ٢٨٠/٧.

(٢) ينظر: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، ٤٤٢/٣ : ٤٧٣.

(١) **الآلوسي**: هو محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي البغدادي، ولد سنة ١٢١٧هـ بمدينة ألوس وهي جزيرة في وسط نهر الفرات في محافظة الأنبار، عائلته عائلة علوية النسب، وألوسيه الموطن، وبغدادية السكن، مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر، تقلد الإفتاء ببلده عام ١٢٤٨هـ، من مؤلفاته:(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ونشوة المدام في العودة إلى دار السلام، وغرائب الاغتراب، ودقائق التفسير ... وغيرها)، توفي في ٥ ذو القعدة عام١٢٧٠هـ = ٢٩ تموز عام ١٨٥٤م، ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي. **ينظر**: معجم المؤلفين لرضا كحالة، ٨١٥/٣.

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي البغدادي، ٢٨٠/١٥.

قلت: تواترت الأحاديث الصحيحة، والأثار المنقولة عن أكابر الصحابة والتابعين، على أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. ومن الأحاديث التي دلت على ثبوت الرؤية لله - عز وجل - ما رواه البخاري في صحيحه قال:" حدثنا عمرو بن عوف حدثنا خالد وهشيم عن إسماعيل بن قيس عن جرير قال: كنا جلوسا عنده (ﷺ) إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل صلاة الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا "(١). وما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بقولهما:" قال النبي (ﷺ):[إنكم سترون ربكم عيانا](٢) .... الخ من الأحاديث التي تثبت رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة، وترد على من أنكر تلك المسألة (٣).

وبذلك يثبت رأي أهل السنة القائل: برؤية الله - عز وجل - يوم القيامة عيانًا، وأن المحجوب عن الرؤية هو الكافر لا المؤمن، وهو الصحيح لقوة أدلتهم القطعية الثبوت.

المسألة الثالثة: حول هل تتفاوت درجات الأنبياء وأحوالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة، أم هم سواء؟ وكيف نجمع بين الآيات والأحاديث التي توضح عدم تفضيل النبي (ﷺ) على باقي الأنبياء - عليهم السلام - وبين الآيات والأحاديث التي تفضله (ﷺ) ؟:

قال الإمام الطيبي - رحمه الله - عند تفسيره لقول الله - تعالى -: چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ پ پ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ چ (البقرة: ٢٥٣)؛ :" ... وأما بيان كونه صلوات الله عليه أفضل المرسلين فهو أنه - تعالى - لما أدخله في زمرة المرسلين أجمعهم؛ لأنه جمع محلى باللام مفيد للشمول، اتجه لسائل أن يسأل: أن تلك الرسل هل تتفاوت حالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة أم هم سواء؟ فقيل: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، ثم أخذ يشرع في بيان التفضيل في التفصيل: منهم من كلم الله، ومنهم من رفع درجات، ومنهم من أوتي من المعجزات، ومنهم من حاله كَيْتَ وكَيْت، وإنما فرق أحد من الأقسام بقوله :" بعضهم وبالدرجات "، ليشير إلى أن هذا القسم مباين للأقسام، ومغايرته بحسب ما خص به؛ لأن رفع الدرجات ليس من قبيل ما أوتوا ولا هو داخل في حكم ما أعطوا، ويعضده ما روينا عن البخاري ومسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ):[ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلَّا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي

---

(٣) سبق تخريجه، ينظر (ص١٢).

(٤) **صحيح**: رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النساء، ١١٨/٣، ح (٧٤٤١). ورواه أيضًا في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (القيامة:٢٢، ٢٣)، (٢٨٣/٤) حديث رقم (٤٨٥١) من حديث قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله. وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، (٩١/١)، حديث رقم (٤٣٥)، من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري.

(٥) جاء في ذلك أحاديث كثيرة في صحيح البخاري منها: كتاب: تفسير القرآن، باب: تفسير سورة النجم، ١٢٠/٣، حديث رقم (٤٥٨١). ومسلم في كتاب: الإيمان باب: رؤية أهل الجنة لربهم عيانًا، ٩٥/١، حديث رقم (١٨٣) عن أبي سعيد. وأخرج البخاري حديث رقم (٦٥٧٤). ومسلم حديث رقم (١٨٢) عن أبي هريرة. وأخرج البخاري في كتاب مواقيت الصلاة حديث رقم (٥٥٤). وكتاب: التوحيد ح (٧٤٣٥، وحديث رقم ٧٤٤٠). وفي مسلم حديث رقم (٦٣٣).

أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فأَرْجُو أنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعًا يَومَ القِيامَةِ](١). وروى محيي السنة في هذه الآية : وما أوتي نبي آية إلا أوتي نبينا مثل تلك الآية، وفضل على غيره بآيات مثل: انشقاق القمر بإشارته وحنين الجذع بمفارقته وتسليم الحجر والشجر عليه وكلام البهائم والشهادة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تحصى، وأظهرها القرآن الكريم الذي عجز أهل السماء والأرض عن الإتيان بمثله، وكذا عن الزجاج، وضم القاضي إليه المعجزات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر"(٢).

الدراسة والتحليل: في تلك المسألة التي تتحدث عن التفضيل بين الأنبياء - عليهم السلام - يطرح الطيبي سؤالًا على لسان سائل، مفاده: تلك الرسل هل تتفاوت حالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة أم هم سواء؟ ثم يجيب عن سؤاله ويشرع في بيان التفضيل تفصيلاً، مع بيان منزلة وقدر النبي (ﷺ) من بين سائر الأنبياء عليهم السلام، ويدلل على ذلك بحديث النبي (ﷺ)، كما يستشهد برأي الإمام البغوي في تفضيل النبي (ﷺ) على غيره من الأنبياء، وذكره لبعض معجزاته (ﷺ)، وهو من خلال تلك الإجابة يوضح أن هناك تفاوت في درجات الأنبياء وأحوالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة، وكان من المفترض أن يوفق الإمام الطيبي، وكذا الإمام الزمخشري بين هذه الآية وبين الأحاديث الثابتة في الصحيحين والتي ظاهرها التعارض وأنه لا تفاضل بين الأنبياء - عليهم السلام -.

ولزيادة الإيضاح حول تفاوت درجات الأنبياء وأحوالهم في علو الرفعة ومراتب الرسالة، أتناول ما طرحه المفسرون عند تفسيرهم لتلك الآيات:

- قال الإمام القرطبي(ت٦٧١هـ):" هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول: «لا تخيروني على موسى» و «لا تخيروا بين الأنبياء» وفي رواية «لا تفضلوا بين الأنبياء»(٣) أي: لا تقولوا فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان **فكيف الجمع؟** فالجواب: أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع. أو المراد النهى عن الخوض في ذلك، لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال قد يؤدى إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به، وقد يؤدى إلى قلة احترامهم. ثم قال. وأحسن من هذا القول من قال: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها، ولذلك فهم رسل، وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله. فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل. وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير النسخ"(٤).

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي وأول ما نزل، ٢٢٤/٣، (برقم ٤٩٨١). ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد (ﷺ) إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ١/ ١٣٤، ورقمه (١٥٢) .

(٢) فتوح الغيب، للطيبي (٤٧٥/٣:٤٧٧) بتصرف يسير. وينظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٨/١. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، ٣٣٤/١. وأنوار التنزيل للقاضي البيضاوي، ٥٥٠/١.

(١) سيأتي تخريج تلك الأحاديث تباعا في الصفحات التالية.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ٢٦١/٣:٢٦٥، بتصرف يسير.

- **وذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره:**" يخبر - تعالى - أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال :{ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا} (الإسراء:٥٥) وقال هاهنا: ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ﴾ (البقرة:٢٥٣) يعني: موسى ومحمدا (ﷺ) وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه(١)،﴿ﭝ ﭞ ﭟ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء، حين رأى النبي (ﷺ) الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل(٢).

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية؛ وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: [استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال: أي خبيث وعلى محمد (ﷺ)! فجاء اليهودي إلى رسول الله (ﷺ) فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله (ﷺ): لا تفضلوني على الأنبياء؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء، وفي رواية: لا تفضلوا بين الأنبياء](٣).

فالجواب من وجوه: أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفي هذا نظر. الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع. الثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر. الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية. الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به. وقوله :{ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ} أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم "(٤).

- **وذكر صاحب التحرير والتنوير**، هذه المسألة وفصلها فقال:" المقصود من هذه الآية تمجيد سمعة الرسل عليهم السلام، وتعليم المسلمين أنّ هاته الفئة الطيّبة مع عظيم شأنها قد فضّل الله بعضها على بعض، وأسباب التفضيل لا يعلمها إلاّ الله تعالى، غير أنّها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المُصلِحة للبشر ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيَّدُوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدى البشر، وفي عموم ذلك الهديِ ودوامِهِ، وإذا كان الرسول (ﷺ) يقول:[لأنْ يهدي الله بك رجلاً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس](٥). فما بالك بمن هدى الله بهم أمماً في أزمان متعاقبة، ومن أجل ذلك كان محمد (ﷺ) أفضل الرّسل. ويتضمن الكلام ثناء عليهم وتسلية للرسول (ﷺ) فيما لقي من قومه. وقد خصّ الله من جملة الرسل بعضاً بصفات يتعيّن بها المقصود منهم أو بذكر اسمه، فذكر ثلاثةً إذ قال: منهم من كلَّم اللَّهُ، وهذا موسى عليه السلام لاشتهاره بهذه الخصلة

---

(٣) **ضعيف:** رواه ابن حبان في (الموارد) ١٩١/١، حديث رقم (٩٤)، وقال فيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال أبو حاتم وغيره: كذاب.

(٤) **صحيح:** أخرجه أحمد في مسنده (برقم ١٤٠٨)، وابن أبي شيبة في (المصنف)، (برقم ١٧٨٨٣).

(٥) **صحيح:** أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسي عليه السلام ٢٥١/٣ حديث رقم (٣٢٢٧). ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى - عليه السلام - ١٥٩/٤ حديث رقم (١٨٤٣).

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير الدمشقي، ٦٦٣/١،٦٦٤.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، ٥٤٦/٤، حديث رقم (٣٩٧٣). وفي كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب على بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن- رضي الله عنه – ٨٧/٧، حديث رقم (٣٤٩٨). وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل على بن أبي طالب - رضي الله عنه -، ١٢٠/٣حديث رقم (٦٥٠).

العظيمة في القرآن، وذَكَر عيسى عليه السلام، ووسط بينهما الإيماءَ إلى محمد (ﷺ) بوصفه، بقوله :{ ورفع بعضهم درجات }. وقوله: {ورفع بعضهم درجات} يتعيّن أن يكون المراد من البعض هنا واحداً من الرسل معيّناً لا طائفة، وتكون الدرجات مراتبَ من الفضيلة ثابتة لذلك الواحد: لأنّه لو كان المراد من البعض جماعة من الرسل مُجملاً، ومن الدرجات درجات بينهم لصار الكلام تكراراً مع قوله فضّلنا بعضهم على بعض، ولأنّه لو أريد بعضٌ فُضِّل على بعض لقال، ورفع بعضهم فوق بعض درجات كما قال في الآية الأخرى: {ورفع بعضكم فوق بعض درجات} [الأنعام:١٦٥]. وهذا إعلام بأن بعض الرسل أفضل من بعض على وجه الإجمال، وعدمِ تعيين الفاضل من المفضول: ذلك أنّ كل فريق اشتركوا في صفةِ خيرٍ لا يخلُونَ من أن يكون بعضهم أفضل من بعض بما للبعض من صفات كمال زائدة على الصفة المشتركة بينهم، فإذا كان التفضيل قد أنبأ به ربّ الجميع، ومَنْ إليه التفضيل، فليس من قدْر النّاس أن يتصدّوا لوضع الرسل في مراتبهم، وحسبهم الوقوف عندما ينبئهم الله في كتابه أو على لسان رسوله. وهذا مورد الحديث الصحيح [لا تُفضّلوا بين الأنبياء](١)، يعني به النهى عن التفضيل التفصيلي، بخلاف التفضيل على سبيل الإجمال، كما نقول: الرسل أفضل من الأنبياء الذين ليسوا رسلاً. وأما قول النبي (ﷺ) [لاَ يقولَنّ أَحَدُكُم أَنَّا خَيْرُ مِنْ يُونسْ بِنْ مَتَّى(٢) يعني بقوله :(أنا) نفسه على أرجح الاحتمالين وقوله:« لا تُفَضِّلوني عَلَىَ مُوسَى » فذلك صدر قبل أن يُنبئَه اللهُ بأنّه أفضل الخلق عنده. وهذه الدرجات كثيرة، وقد عطف ما دل على نبينا، على ما دل على موسى عليهما السلام لشدة الشبه بين شريعَتَيْهما، لأنّ شريعة موسى - عليه السلام - أوسع الشرائع، ممّا قبلها، بخلاف شريعة عيسى - عليه السلام - "(٣).

تعليق: في الآية دليل على التفاضل بين الأنبياء، كما ثبت أيضاً في حديث الإسراء حين رأى النبي (ﷺ) الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل. كما دلت الآية كذلك على مسألة خلق الأعمال، وأن الكائنات كلها بقضاء الله وقدره، فيوفقُ من يشاء فضلاً ويخذل من يشاء عدلاً، ولا اعتراض لأحد عليه في فعله. وأن تَفضيلَ بَعضِ الأنبياءِ على بَعضٍ أمرٌ خاصٌ باللهِ سُبحانه فقطْ، وهو وَحْدَه مَن يَملِكُ هذا الأمرَ، وليس لِبشَرٍ أنْ يُفاضِلَ بيْن هؤلاء الأنبياءِ دونَ عِلمٍ أو تَبَعًا لِهوًى، ولتَكُنِ المُفاضَلةُ بما نصَّ عليه اللهُ - عزَّ وجلَّ - وبيَّنَته أقوالُ النَّبيِّ (ﷺ). والمانع من تفضيل البشر إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها، ولذلك فهم رسل، وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله. فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل. وبذلك جمع العلماء وأهل التفسير ومنهم الإمام الطيبي بين الآيات القرآنية والأحاديث التي تفضل النبي (ﷺ) عن باقي الأنبياء (عليهم السلام)؛ وبين الآيات والأحاديث التي في ظاهرها التعارض بعدم تفضيله (ﷺ) ووفقوا بينها بوجوه(٤).

---

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن - سورة النساء، باب: قوله تعالى: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح، إلى قوله: ويونس وهارون وسليمان، ١٢٣/٣، حديث رقم (٤٦٠٤).

(٥) ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لابن عاشور، ٦/٣.

(١) معظم أهل التفسير جمعوا بين قوله تعالى: چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ ڀ ڀ چ (البقرة: ٢٥٣)، حيث تتحدث عن: تفاوت درجات الأنبياء وأحوالهم؛ وبين الأحاديث الثابتة في الصحيحين والتي ظاهرها

وخلاصة المسألة: أن العلماء ذكروا عند الجمع والتوفيق بين الآيات، والأحاديث التي في ظاهرها التعارض، وموهم الخلاف بين تفضيل الأنبياء؛ وعدم تفضيلهم، وجوهاً من القول لتوجيه ذلك، منها:

الوجه الأول: أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل.

الوجه الثاني: أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع.

الوجه الثالث: النهي عن الخوض في ذلك؛ لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال، وذلك يؤدي إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر، ويقل احترامهم عند المماراة.

الوجه الرابع: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات.

الوجه الخامس: لا تفضلوا بين الأنبياء بمجرد الرأي والعصبية.

الوجه السادس: أنه ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله - عز وجل - وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به. فتَفضيلُ بَعضِ الأنبياءِ على بَعضٍ أمرٌ خاصٌّ باللهِ سُبحانه فقطْ، وبذلك يزول الإشكال وما ظاهره التعارض، فلا خلاف.

الخـــاتـمــة:

بعد عرض تلك المسائل؛ نستخلص أهم نتائج الدراسة:

١) مكانة الإمام الطيبي العلمية وثقافته لم تكن محصورة في فن بعينه، أو مقصورة على لون من ألوان المعرفة، ولكنها شملت عدة فروع من العلوم والمعارف والفنون.

٢) العقيدة في اللغة تأتي بمعنيين الأول: العقيدة بمعنى الاعتقاد، فهي التصديق والجزم دون شك. والثاني: العقيدة بمعنى ما يجب الاعتقاد به. أما العقيدة اصطلاحًا: فهي الإيمان الذي لا يحتمل النقيض، وقيل: هي التصور الإسلامي الكلي اليقيني عن الله الخالق، وعن الكون والإنسان والحياة، وعما قبل الحياة الدنيا وعّما بعدها وعن العلاقة بين ما قبلها وما بعدها.

٣) مشكلة خلق الأفعال من أعقد القضايا التي واجهت الفكر البشري، واختلفت بشأنها الأنظار اختلافا كبيرا في شتى المذاهب الفلسفية والدينية قديما وحديثا.

٤) اتفق الإمام الطيبي مع أهل السنة والجماعة في أن أفعال العباد من خير أو شر هي من عند الله - تعالي - حيث يجوز عليه - تعالى - خلق الشر وإرادته كالخير - وإن كان لا يأمر إلا بالخير - والختم على القلوب عند أهل السنة مراده خلق الضلال فيها. أما عند المعتزلة، فإنه لا يجوز عليه تعالى خلق الشر، فهو يتعالى عن فعل القبيح، وعليه فإسناد الختم على القلوب إلى الله - عز وجل - هو على سبيل المجاز لا الحقيقة، لأن العبد هو الخالق لفعل نفسه، بناء على فهمهم الباطل لنصوص الشرع، واعتقادهم بأن أفعال العباد التي فيها ظلم وشر، لا يمكن أن يخلقها الله - تعالى - بناء على ظنهم أن هذا من الظلم الذي ينزه الله عنه.

التعارض وأنه لا تفاضل بين الأنبياء عليهم السلام، وقاموا بالتوفيق بينها. واختار الإمام الطيبي في الآية الكريمة التفاضل بين الأنبياء - عليهم السلام - موضحاً أن النبي (ﷺ) أفضلهم بكثرة المعجزات، ولما أعطاه الله - سبحانه - من هبات ومنح دون غيره من الرسل، مع التوفيق بين الآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض في الموضوع. كما تعرض الإمام لتلك المسألة في الآية (١٩١) من سورة آل عمران وذلك عندما علق على الحديث الذي استشهد به الزمخشري بأن النبي(ﷺ) قال:[لا تفضلوني على يونس بن متى -والسبب- لأنه كان يرفع له في كل يوم مثل عملِ أهلِ الأرض]. فوفق الطيبي وجمع بين الأحاديث وبعضها ليدفع اللبث ويكشف الغمام. **ينظر:** فتوح الغيب، حاشية الطيبي على الكشاف، ٤٥٤/١.

لذلك وضح الطيبي أن الإحداث من الله تعالى حقيقي، وجعل الآية جارية مجرى السبب الموجب لكون الهدى لا ينفع فيهم، لأنه تعالى علم تصميمهم على الكفر، وأوقع قوله: ﭼ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭼ (البقرة:٧) جوابًا منطويًا على بيان الموجب، والصحيح ما عليه أهل السنة.

٥) موقف الْمُعْتَزِلَةُ من مسألة رؤية الله - تعالى - يوم القيامة؛ هو نفي الرؤية، حيث ثَبَتَ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ أَنَّهُ تَعَالَى تَمْتَنِعُ رُؤْيَتُهُ، فَوَجَبَ صَرْفُ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ إِلَى التَّأْوِيلَاتِ بينما ذهب أهل السنة والجماعة والجمهور إلى أن رؤية الله تعالى جائزة عقلا وواقعة فعلا في الآخرة، واستدلوا على ذلك بالنقل والعقل.

٦) يمكن التوفيق والجمع بين الآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض والخلاف حول عدم تفضيل النبي (ﷺ) على باقي الأنبياء - عليهم السلام -؛ وبين الآيات والأحاديث التي تفضله (ﷺ)، أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع. أو المراد النهى عن الخوض في ذلك، لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال. وقيل: المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها. فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل. أو أنه ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله - عز وجل - وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به. فتَفضيلُ بَعضِ الأنبياءِ على بَعضٍ أمرٌ خاصٌّ باللهِ سُبحانه فقطْ، وبذلك يزول الإشكال وما ظاهره التعارض فلا خلاف.

٧) من خلال هذه المسائل يتضح لنا مذهب ومعتقد الإمام الطيبي وأنه كان يسير على منهج أهل السنة والجماعة، ويدافع عنهم، كما أنه كان يعارض الإمام الزمخشري أحيانًا ويرد عليه بأبلغ رد، ويعود به إلى جادت الصواب، مستشهدا بأقوال العلماء، كما كان يذكر رأيه في القضية ويوضح المسألة.

المصادر والمراجع:

١- الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: رفيق العجم، على دحروج، الناشر: مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر ١٩٩٦م.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المسمى: تفسير أبي السعود، لأبي السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٢هـ.

٣- أصول الدين، لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي، تحقيق: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٤- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين بن على أبو بكر البيهقي، تحقيق: أحمد بن إبراهيم أبو العينين، الناشر: دار الفضيلة، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٥- الانتصاف بحاشية الكشاف، لابن المنير الإسكندري، تحقيق: عادل أحمد، وعلى معوض، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المسمى: تفسير البيضاوي، طبعة دار الكلم الطيب، بيروت، تحقيق: يوسف على بدوي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

٧- البحر المحيط في التفسير، المسمى: تفسير أبي حيان الأندلسي تأليف: الإمام أبي حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر بيروت / لبنان، سنة ١٤٢٠هـ.

٨- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، ط دار السعادة، بيروت (د.ت).

٩- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، ط دار العلم، بيروت/لبنان، ٢٠٠٠م.

١٠-التحرير والتنوير = تفسير ابن عاشور، لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر والتوزيع - تونس سنة النشر ١٩٨٤هـ.

١١- تفسير القرآن العظيم، المسمى: تفسير ابن كثير، للحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي تحقيق د/ السيد محمد السيد وآخرون، طبعة دار الحديث، القاهرة ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

١٢- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه، الشهير بـ صحيح البخاري، تأليف محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفري، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣- الجمان في تشبيهات القرآن، لابن ناقيا البغدادي، طبعة دار الهدى للطباعة والنشر.

١٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد / الهند، ١٩٧٢م.

١٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة الألوسي البغدادي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت / لبنان (د.ت)، وطبعة دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق على عبد الباري عطية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٦- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحلبي، تحقيق محمود الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير دمشق، ط: الأولى ١٤٠٦هـ.

١٨- شرح العقيدة الطحاوية، لصدر الدين على بن محمد بن أبي العز الحنفي، ط: وكالة المعارف، إسطنبول، الطبعة الأولى، ١٩٥١م.

١٩- شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتا زاني الشافعي، طبعة دار الفكر، ١٩٧٩م.

٢٠- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د/ الحافظ عبد العليم خان، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٢١- طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، طبعة دار الفكر، القاهرة (د.ت).

٢٢- طبقات المفسرين، تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

٢٣- طبقات المفسرين، لمحمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت (د ت).

٢٤- العقيدة الإسلامية وأسسها، تأليف: عبد الرحمن حسن حبكة الميداني، طبعة دار القلم/ دمشق، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٩هـ.
٢٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للإمام نظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلمية بيروت / لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٢٦- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، حاشية الطيبي على الكشاف للزمخشري، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د/ جميل بنى عطا، المشرف العام: د/ محمد عبد الرحيم، طبعة دائرة المكتبة الوطنية بالأردن، وحدة البحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.
٢٧- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور، طبعة دار الأفاق الجديدة، بيروت / لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
٢٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٧هـ.
٢٩- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفي بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني، حاجي خليفة أو الحاج خليفة، طبعة مكتبة المثني ببغداد، ط١، ١٩٤١م.
٣٠- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)، الشهير بصحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت / لبنان (د. ت).
٣١- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
٣٢- معجم الأدباء المسمى: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
٣٣- المعجم المختص بالمحدثين، للإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق: د/ محمد الحبيب الهيلة، ط مكتبة الصديق بالطائف، السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
٣٤- المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار، ط دار الكتب العلمية ٢٠١٨م.
٣٥- مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، تأليف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، ط إحياء التراث العربي، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٣٦- الملل والنحل، لأبي الفتح محمد عبد الكريم ابن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
٣٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت / لبنان، سنة الطبع ١٩٧١م.

Among the issues of faith in the footnote of imam al - Tibi on the interpretation of al-Kashshaf of al-Zamakhshari. "Seeing God -the Mighty and Sublime-, the creation of actions, the varying degrees of the prophets and their conditions - as a model "

By

Hazem Shaban Al- Morse Al- Daqra

Dr. Mohamed Atta Ahmed Youssef

Professor of Islamic Studies, Faculty of Arts, Tanta University

Dr. Iman Aliwa Al- Mangoudi

Lecturer of Islamic Studies, Faculty of Arts, Tanta University

Abstract:

The Islamic religion is a religion of belief, a religion of law, and a religion of morals, and on These elements the true Islamic religion is based, and by knowing and characterizing them, man Obtains happiness in this world and the hereafter. Among the foundations and pillars of the Islamic faith: belief in God - the Mighty and Sublime - and belief in the Messengers, as Missionaries and warners, and ratification of their call. And among those whom God Almighty has enabled to respond to some controversial issues - especially in the field of creed - Imam / Sharaf al- Din al- Hussein bin Muhammad bin Abdullah al- Tibi - who died in the year (743AH)(1). And that is in his footnote [Futuh al- Ghayb fi Revealing the Mask of Uncertainty], which is for the sake of footnotes on the interpretation of al-Kashshaf by Imam al- Zamakhshari (d.538AH). It is full of jokes and benefits, charged with Responses and kindnesses, because of what it contains of the correct belief, and the response to what contradicts it is an original scientific response. Imam al- Tibi's moderate methodology appeared in examining some issues related to the belief and its realization, including: attributing the seal on the hearts to God Almighty, and the opinion of the people of belief in the issue of the creation of actions. Among them: detailing the saying in the judgment of

(1) see: Al- Durar al- kamina' 2/185' and kashf al- Dhunoun'1/341' and gold nuggets ' 8/239' and the way of the wa'ah' 1/522'.

seeing God - Glory be to Him - on the Day of Resurrection. Among them: the disparity of the degrees of the prophets and their conditions in the height of elevation and the ranks of the message, and Al- Tibi cited the sayings of scholars who specialize in those sciences, as well as the sayings of the commentators, in responding to and discussing the opinions of some Islamic groups and their beliefs. Explaining in his footnote to Al- Kashshaf the validity of these responses or not, and what he took on Imam Al- Zamakhshari in his interpretation, or his victory for him, by presenting these three doctrinal issues by explaining and refuting in his footnote to Al- Zamakhshari's scout.

key words: creed, footnote of Tibi, the creation of actions, seeing God Almighty, the different degrees of the prophets.